لتكن مشيئتُكَ كما في السماء كذلك على الأرض

٢٢ أيلول ٢٠٠٢

ليست مشيئة الله في السماء «إرادة حقوقيّة»، بل هي «خلاص العالم» (راجع: يوحنّا ٦: ٣٩– ٤٠؛ وأفسس ١: ٣– ١٠)، أو كما يقول اللاهوتيّ الأرثوذكسيّ المعاصر أوليفييه كليمان: هي «دفع تدفّق حياة، ما يعطي الوجود ويجدّده عندما يتيه». وهذه المشيئة كشفها الله الآب، في ملء الزمان، في ابنه يسوع الذي لم يكن فيه «نعم ولا، بل نعم وآمين» (٢كورنثوس ١: ١٩)، وهي التي تطيعها الملائكة في السماء (مزمور ١٠٣: ٢٠)، وتعلّيها صلوات القدّيسين (رؤيا ٤: ١١)، وهي، في الأخير، ما يريد الله أن تظهر في الكنيسة المجاهدة قبل أن يستقبلها في ملكوته الأخير بعد أن تكون قد تخلّصت من كلّ ما يناهض مشيئته.

لأنّ «من يتخلَّ عن مشيئته فهو قدّيس»، كما يقول أبونا البارّ يوحنّا السلّميّ (المقالة ٩/١٧). وهذا (أن نتخلّى عن مشيئتنا) لا يعني، بالطبع، أن نكون بلا مشيئة، ولكن أن تصبح مشيئة الله هي إيّاها مشيئتنا. فالذين يطلبون مشيئة الله حقًّا هم أولئك الذين لا يقيمون وزنًا لما في هذا العالم من مغريات، وهم الذين مهما اشتدّت عليهم التجارب والمحن، لا يهادنون ولا يساومون على الحقّ، بل يقبلون النعمة التي أعطيت لهم بالمسيح الذي خلّص العالم من كلّ شرٍّ وموت لمّا استسلم كلّيًّا لمشيئة أبيه. يقول القدّيس كيرلّس الإسكندريّ: «أولئك الذين يتوسّلون، في صلواتهم، أن تتمّ مشيئة الله على الأرض، ينبغي لهم، بالضرورة، أن يحيوا هم أنفسهم بلا لوم، وألاّ يبالوا بالأمور الأرضيّة، بل أن يتحرّروا من كلّ دنس، ويقفزوا خارجًا من حفرة الإثم «مكمّلين القداسة في خوف الله» (٢كورنثوس ٧: ١)».

لا يكرهنا يسوع على شيء، فهو لا يطلب منّا أن نقبل إرادته غصبًا عنّا، ولكن بحرّيّة تامّة. والحرّيّة هي صورته فينا. يريدنا أن ننفّذ إرادته لأنّه ربّنا، ولأنّه يعرف مصلحتنا أفضل منّا. لا يكرهنا الله على شيء، لأنّنا أبناؤه، ولسنا عبيدًا. العبد (قد) لا يقتنع دائمًا بما يريده سيّده، ولو نفّذ إرادته. أمّا الابن فيعرف أنّ أباه يحبّه فيطيعه في كلّ حال، ولو قسا عليه يعرف أنّ قسوته وجه من وجوه حبّه إيّاه. صحيح أنّ الأبرار يستعبدون أنفسهم لله (لوقا ١٧: ١٠)، ولكنّه هو لا يراهم عبيدًا، بل

والله الذي بيّن صدقه وحبّه علانيةً يفعل ما يشاء باستقلاليّة تامّة وقدرة مطلقة. غير أنّ قصده يتحقّق، في العالم، عبر جوابنا نحن البشر وطاعتنا له كأبناء أحبّاء. فهو يريدنا قدّيسين (١تسالونيكي ٤: ٣). ولقد أعطانا روحه ليقوّم تقاعسنا، ويقوّي فينا كلّ عزم لنكون موافقين وعاملين «في سبيل رضاه» (فليبي ٢: ١٣؛ عبرانيّين ١٣: ٢١). لقد رأينا في طلبتَيْ: «ليتقدّس اسمك» و«ليأتِ ملكوتك»، أهمّيّة أن يكون الإنسان منفتحًا على متطلّبات الله في حياته. وهنا، في هذه الطلبة، نجد المعنى عينه، وذلك بأنّ مشيئة الله لا تتمّ في الأرض كلاميًّا فحسب، ولكن بالفعل أيضًا، أي بطاعة الحياة. هذا ما أظهره يسوع «في ضيعة يقال لها جتسمانيّة» (متّى ٢٦: ٤٢ وما يوازيها)، إذ صلّى قبل آلامه بثقة كاملة واستسلام كامل وحرّ لمشيئة الله أبيه، استسلام هو، في حقيقته، تعبير عن خضوعه لأبيه وتواضعه أمامه (قال: لتكن مشيئتك لا مشيئتي). الربّ، في هذا النزاع الأخير، لم يطلب أن ينجّيه أبوه من الموت القريب، بل أراد أن يدلّ على تجاوبه وإرادةَ أبيه. وهذا ما يطلبه الربّ من الذين يرغبون بأن يعرفوا الله مخلّصًا وقدّوسًا: أن يتشبّهوا بيسوع فيثقوا بالله مهما كانت ظروفهم صعبة، ويبتعدوا عن كلّ شرّ يهاجمهم، ويصلحوا أنفسهم دائمًا على ضوء رحمته ومحبّته (أنظر: رومية ١٢: ١– ٢).

ما يبيّن، إذًا، أنّنا قَبِلْنا هذه الطلبة هو أن نتخلّى عن مشيئتنا. وذلك

الأرض تجاوب وتناظر وتقابل. إنّ السماء نموذج الأرض، أو بكلمة أصحّ هي إكمال وتتميم ذلك الذي يبدأ على الأرض».

في الأخير، تكشف لنا هذه الطلبة خلاص الله الذي صالح، بموت ابنه وقيامته، السماء والأرض (السماويّين والأرضيّين)، ووحّدهما به. هذه هي مشيئته التي خالفها الجدّان الأوّلان في الفردوس فأُخرجا خارجه بعيدًا عن الله، والتي جاء يسوع متجاوزًا كلّ حدود ومسافة وضعتهما الخطيئة ليعيدنا إلى أبيه. وهو ينتظر دائمًا أن نعمل نحن رضاه لتسود مشيئته في الأرض، ليكون في الأرض نور السماء وحبّها وإخلاصها.

أبناء. يقول يسوع: «لا أدعوكم عبيدًا بعد اليوم، لأنّ العبد لا يعلم ما يعمل سيّده. فقد دعوتكم أحبّائي لأنّي أطلعتكم على كلّ ما سمعته من أبي» (يوحنّا ١٥: ١٥).

من المفيد أن نذكر أنّ بعض علماء التفسير رأوا أنّ عبارة «كما في السماء كذلك على الأرض» لا ترتبط بهذه الطلبة حصرًا، ولكن بما سبقها أيضًا. وهذا ما أوحى به قديمًا العلاّمة أوريجانس بقوله: «يمكننا أن نفهم عبارة متّى (كما في السماء كذلك على الأرض) بمعنى أوسع. فالصلاة المطلوبة منّا هي كالتالي: ليتقدّس اسمك كما في السماء كذلك على الأرض، ليأت ملكوتك كما في السماء كذلك على الأرض، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض. فاسم الله قدّسه سكّان السماء؛ وملك الله أقيم فيهم؛ وإرادة الله تحقّقت فيهم. فكلّ هذه الأشياء التي هي ناقصة لسكّان الأرض، بوسعها أن تتحقّق إذا عرفنا أن نكون أهلاً لأن يستجيب الله لنا». غير أنّ هذا التوسّع، يجب أن لا يولّد لنا، كما يقول الأب ليف (جيله)، فيما نتلو هذه الطلبة، «تأثيرات خاطئة». «لأنّه لا يمكن أن تجري مشيئة الله على الأرض تمامًا وكمالاً كما هي في السماء، وذلك لسبب بسيط، وهو أنّ الأرض ليست كاملة، أبديّة، نهائيّة كما هي السماء. الأرض مسيرة أمّا السماء فغاية. الأرض موقّتة تتكامل باستمرار، وتتحسّن بغير انقطاع. أمّا السماء فهي نهاية، تكميل، كلّيّة. ولكن بين تحقيق المشيئة الإلهيّة في السماء وتحقيقها على